© rasailojaraid.com

فكرة الموت في الشعر العربي

كفايت الله همداني*

الحمد لله الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، الذي كتب على عباده الموت، واستأثر بالبقاء، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١) وأصلي وأسلم على خير خلقه وشفيع أمته محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وبعد:

فالموت ظاهرة إنسانية وجدت مع الحياة نفسها، ولكن الموقف منه يتخذ أشكالاً شتى تبعاً لعوامل عديدة : بيئية ونفسية ولعل استئثار الشعراء جلهم يوصف هذه الظاهرة إنما كان يتضمن إدراكاً باطناً لهذه الخاتمة التي تلاحقهم، فراحوا يعرضون لها في إبداعاتهم كغيرهم من أصحاب الفنون، وأصبح التفكر بالموت سمة من سمات الرومانسية العربية التي اهتمت عند ظهورها بالنزعة الذاتية الحزينة فاستمر هذا الاتجاه قوياً متدفقاً.

الموت لغة: الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت خلاف الحياة وإنما قلنا أصله ذهاب القوة، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم "مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئًا فَلَا يَقْرَبْنَا فِي الْمَسْجِدِ فإذا كنتم لا بد آكليها فأميتوها طبخا"(٢) والموتان: الأرض لم تُحي بعد بزرع ولا إصلاح، وكذلك الموَات".(٣) أما ما جاء في لسان العرب فـ "الموت خلق من خلق الله تعالى غيره الموت والموتان ضِد الحياة والموات بالضم الموت مات يموت موتا".(٤) ثم ينقل عن الراغب الأصبهاني: من دون ذكر اسمه تعريفا موسعا في منتصف المادة، يقول: "والموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة فمنها ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات كقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٥) ومنها زوال القوة الحسية كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾(٦) ومنها زوال القوة العاقلة وهي الجهالة كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(٧) ومنها كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ

---

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها لجامعة الوطنية للغات الحديثة، اسلام آباد، باكستان

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾(٨) ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة ومنها كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾(٩) ومنها المنام كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾(١٠) وقد قيل: المنام الموت الخفيف والموت النوم الثقيل وقد يُستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية وغير ذلك منه الحديث أول من مات إبليس لأنه أول من عصى وفي حديث موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام قيل له إن هامان قد مات فلقيه فسأل ربه فقال له أما تعلم أن من أفقرته فقد أمته؟ وقول عمر رضي الله عنه في الحديث اللبن لا يموت أراد أن الصبي إذا رضع امرأة ميتة حرم عليه من ولدها".(١١)

مرادفات الموت

تعددت أسماء الموت في كتب اللغة ومعظم هذه الأسماء من ألفاظ المؤنث. يقال للموت منية (بفتح الميم وكسر النون وتشديد الياء المفتوحة) وحِمام (بكسر الحاء) وسام، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود، عليكم السّام (أي الموت) حينما قال اليهودي للرسول عليه الصلوة والسلام السام عليك.(١٢)

ومنون (بفتح الميم) وضم النون مخففة) ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(١٣) ويقال للموت أيضا منى (بفتح الميم مع القصر) وشعوب (بفتح الشين) لأنها تشعب الخلائق أي تفرقها. وحين (بفتح الحاء وسكون الياء) فيقال نزل بفلان الحين أي الموت والهلاك، ومنها أيضا أمُّ قَشْعَم(١٤) (بفتح القاف والعين مع شين معجمة ساكنة بينهما)، وأمُّ اللُّهَيْم(١٥)، وأمُّ الدُّهيم.(١٦) والموت والمنية، ومن ألفاظ الموت كما ورد في كتاب الألفاظ الكتابية، "الردى، والهلاك، والثكل والوفاة، والخبال. ويقال في الكنايات عن ذكر الموت، لا قاه ووفاه حمامه، واستأثر الله به، ونقله إلى دار كرامته، وعوجل إلى رحمة ربه، واختار له الله ما اختار لأصفيائه من جواره، ومنه أجن في حفرته، وأقضى إلى ربه وأجنه ضريحه، وصار إلى عمله، وما كدح لنفسه".(١٧)

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

فكرة الموت في الشعر العربي :

لقد كان الاعتقاد السائد لدى البدائي أن الإنسان ولد خالداً وإنما حل الموت بالعالم نتيجة خطأ ارتكبه الرسول الذي يحمل هدية الانعتاق من الموت، ويتدرج الوقت ومن خلال الملاحظة والتجربة، وبعجز ظاهر عن كشف الأسباب(١٨)، أدرك الإنسان حتمية الموت في تلك المرحلة التي انتقل فيها من بدائيته وكما يشير لاندسبرج " أن الوعي بالموت يمضي جنباً إلى جنب مع الاتجاه الإنساني نحو الفردية، ومع قيام الكيانات الفردية المتميزة "(١٩)، فكان هذا الشرط أول شروط حتمية الموت، أما الشرط الآخر، فهو نشأة التفكير المنطقي يقول شلر: " بقدر ما ينبغي علينا أن نعزو لكل حياة شكلاً من أشكال الوعي ينبغي علينا أن نعزو لها أيضاً ضرباً من اليقين الحدسي بالموت "(٢٠) لذلك فعندما أدرك الإنسان في مرحلة فجر التاريخ حتمية الموت، أجهد نفسه في البحث عن الخلود حيث نظرته الواقعية تمتزج بالأسطورة والخيال، فقد سعى جلجامش بعد موت صديقه أنكيدو هائما على وجهه في البراري(٢١).

من أجل أنكيدو، خله وصديقه
بكى جلجامش بكاءً مراً، وهام على وجهه في الصحارى
(وصارَ يناجي نفسه)
إذا ما مت أفلا يكون مصيري مثل أنكيدو ؟
لقد حل الحزن والأسى بروحي
خفت من الموت وهاأنا أهيمُ في البراري

فالموت على الرغم من كونه ظاهرة متكررة معتادة، إذ أنه من البديهيات لدى العقل الواعي والتفكير المنطقي إلى أنه اللغز الأكثر حيرةً، إذ تزداد مأساته عمقاً، كلما شارف الإنسان على أبواب شيخوخته (٢٢)، ويضطر جلجامش للبحث عن سر الخلود ويسير مسيراً طويلاً وحين أدرك جلجامش ما كان يطمح إليه، انتابه السرور الغامر ، ولكنه في طريق عودته فقد ما كان معه، فعاد إنساناً محكوماً عليه بالموت :(٢٣).

إلى أين تسعى ياجلجامش

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

إن الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الآلهة العظام البشر
قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة

فعلى الرغم " من اكتشاف حتمية الموت فإنه يؤدي إلى صدمةٍ عميقة، وأن الإنسان لم يتقبل دون مقاومة مشهد انفصاله عن الأرض وكل بهائها أو الفقدان الحتمي لأحبائه فإن هناك عزاء تمثل في الايمان بالبعث والخلود " (٢٤)، وهذا ما تمثل عند المصريين القدماء بصورة خاصة فقد كانوا " يؤمنون بأن لكل شخص روحاً غير مرئية تأخذ شكل طائر برأس إنسان وتسمى" با " وكانت " الباء " مع " خت " تكونا الفرد، وكلاهما يوجد في الولادة، وتكتمل الشخصية بعنصر ثالث هو الـ " كا " وهو البديل، وهو في نظر المصريين يأتي إلى الوجود في اللحظة التي يولد فيها الإنسان. والفرد يذهب إلى الـ "كا" الخاصة به فيما بعد الحياة، والـ " كا " لا تفنى في السماء وهي تحرس الميت وتحميه فيما ما بعد الحياة فحين يموت المرء ويرقد جسده في القبر وتذهب الـ " با " الى العالم الاخر وترتبط بال"كا" ولكي يحافظ على هذه الصلة بين الـ"با" والـ "كا" في العالم الكائن وراء القبر، كان يصر على الاحتفاظ بالجسد دون أن يبلى، ومن هنا جاء التحنيط بغية الإبقاء على كمال الجسد بعد انفصال الروح.. " (٢٥).

أما البابليون فكانوا يرون أن الكائن الحي ينقسم قسمين هما: الروح والجسد، فإما الروح فتنحدر إلى عالم الموتى، لتبقى إلى حيث الأبد، فهم لا قيامة ولا رجعة عندهم(٢٦) إذ أن " عقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلي إذ أن دينه ديناً أرضياً عملياً فإذا صلى لم يكن يطلب في صلاته ثواباً في الجنة بل كان يطلب متسعاً في الأرض"(٢٧) .

لقد كان الإنسان البدائي لا ينفك يرى في أن قوى الطبيعة وراء كل ما يتعرض له من خير أو شر، وبتدرج الوقت وبتقلباته أصبحت النظرة إلى الموت أكثر واقعية، ومثل الموت القلق الوجودي الأكبر عند الجاهلي، إذ ظل يرهق فكره ووجدانه، إذ لم يكن في تصوره أن وراء الأحداث والظاهرات قوى عاقلة تدير الكون وتنظم أمرِه، وتوجهه وجه ذات غاية، لافتقارهم إلى معتقد ديني يفسر مغاليق الوجود (٢٨)، فكان أن الموت عندهم سوف يدركهم كما أدرك

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

الغابرين. يقول جذل ين اشمط مخاطباً صاحبته بإنه صائر إلى الردى كما صار إليه سابقوه:(٢٩).

أأمام إن الدهر أهلك صرفه اِرماً وعادا
واحتط دوداً واخرج من مساكنها اِيادا
وسما فأدرك اسعد الخيرات قد جمع العتادا
واحتطه والدهر يعقب بعد صالحه فسادا

وقد تخللت نظرة الجاهليين تلك لمحات من معتقدات دينية، ففيها توزع لذلك الخليط من الأيمان بالله المتأتي عن الحنيفية، واليهودية التي انتشرت في الحجاز ثم النصرانية التي انتشرت بالتبشير بين اهالي العراق والشام وشرق الجزيرة.(٣٠)

تلك التي ترى الموت رؤية مبنية على أساس ديني :(٣١) .

وكل امرئ يوماً سيعلم سفيهُ
إذا كشف عند الإله المحاصلُ
وأمسٍ كأحلام النيام نعيمهم
وأي نعيمٍ خلته لا يـزايلُ

ويرى عمرو بن كلثوم حتمية الموت رأي سابقيه نحو قوله :(٣٢) .

وإنّاسوف تدركنا المنايا
مقدرة لنا ومقدرينا

وهذا امرؤ القيس الذي خاض غمار اللذان قبل أن يفتك به الموت، بعد ما ذهب مطالباً بثأر أبيه، يرى ما رآه سابقوه. فالموت الذي أطاح بأهله، وهم على حين غفلة منه، متكالبين على متع الحياة، لا مهرب منه إلا إليه، لذلك نراه ينزع في قولته تلك منزعاً فيه من الموعظة ما جعله يعيد النظر في حياته اللاهية:(٣٣)

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

أرانا موضعين لأمر غيبِ ونسحر بالطعام وبالشراب
عصافير، وذبان، ودود وأجرأ من مجلمة الذئاب
وكل مكارم الاخلاق صارت أليه همي وبه اكتسابي
إلى عرق الثرى وشجت عروقي أوهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي سوف يسلبها وجرمي فيلحقني وشيكاً بالتراب
ابعد الحارث الملك أبن عمرو ويعد الخير حجر ذي القباب
أرجي من صروف الدهر ليناً ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أنني عما قريب سأنشب في شبا طفرٍ وتاب

ويرى عدي ين زيد العبادي أن الحياة آيلة إلى الفناء، وأن على الإنسان أن لا يأمن الدهر، بعد أن أدرك عجزه أمام صولة الدهر : (٣٤)

قد أرانا وأهلنا بحفير نحسب الدهر والسنين والشهورا
فأمنّا وغرنا ذاك حتى راعنا الدهر قد أتانا مغيرا
إن للدهر صولة فاحذرنها لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد ينام الفتى صحيحاً فيردى وقد بات آمناً مسروراً
انما الدهر لين ونطوح يترك العظم واهياً مكسوراً

حتى إذا امتد الزمان وجاء عصر الإسلام، أمحت رسوم تلك النظرة، وأصبحت الحياة الدنيا هي الحياة الصغرى، إذ تتلوها الحياة الأبدية، إذ قد عزز القرآن الكريم جذور تلك النظرة التي انتقلت إليهم من الديانات التي كانت موجودة في الجزيرة وما يجاورها، والمتمثلة باليهودية والنصرانية " على الرغم من هواجس الموت التي كانت تشغل تفكيرهم وتقلقهم وتؤرقهم ألا أن نظرتهم إلى الموت اختلفت تماماً عن نظرة أسلافهم، إذ اصبح لكل من الحياة والموت غاية في وجودهم، إذ هم على دراية بأن الحياة فانية وأن الموت آتٍ، وما ذاك ألا لغاية وتدبير" (٣٥)، على أن الموت لا يخلد أحداً، فلايني أن يدرك الرسل والأنبياء. يقول أبو العتاهية :(٣٦)

الموت لا والداً يبقي، ولا ولدا، ولا صغيراً، ولا شيخاً، ولا أحداً

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

كان النبي فلم يخلد لأمتهِ لو خلد الله حيا قبله خلدا
للموت فينا سهام غير مخطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

لقد رأى أبو العتاهية أن الموت غالب في كل الأحوال، لذلك طغى على شعره، اتجاه زهدي. فلا سبيل لدفع الموت. فلا الطيب، ولا المداوي ولا الذي يبيع الدواء، فالكل هم فرائس للموت:(٣٧).

إن الطبيب بطبهِ ودوائه لا يستطيع دفاع مكروه أتى
ماللطبيب يموت بالداء الذي قدكان يبرئ جرحه فيما مضى
ذهب المداوي، والمداوى، والذي جلب الدواء وباعه، ومن اشترى

أما بشار فيرى رأي أبي العتاهية إذ يقول :(٣٨)

ولا يدفع الموت الأطباء بالرقى وسيان نحس يتقى وسعود

فإذا كان لا بد من الموت، فما على المرء ألا أن يأخذ متعته من الحياة، فهذا ديك الجن الحمصي، يتزود من متع الدنيا، لأنه أدرك أن الدهر يسرع بالفتى، فما كان عليه إلا أن يلهو غير منتظر ما سيأتي به الغد : (٣٩)

تمتع من الدنيا فإنك فانِ وأنك في أيدي الحوادثِ عانِ
ولا تنظرن اليوم لهواً إلى غدٍ ومن لغدٍ من حادثٍ بأمانِ
فإني رأيت الدهر يسرع بالفتى وينقله حالين يختلفانِ
فأما الذي يمضي فأحلام نائم وأما الذي يبقى له فأماني

ويمضي الزمن ولغز الحياة والموت ما زال يلح على الفكر البشري، وأصبح التأمل الفلسفي القائم عل النظرة المتأملة وطول الفكرة، هو طريق النفاذ من تلك المحنة، وبامتداد العصر العباسي تختلط المفاهيم الدينية بالفلسفية، وأصبحت النظرة إلى الموت تجري ضمن مجريات عدة ساهمت في

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

خلقها ظروف ألفت المزاوجة بين النظرة الشعرية وبين النظرة العقلية. وتنزلق النظرة من الحتمية المبنية على أساس ديني إلى التشكك المبني على أساس من النظرة الفلسفية.

فهذا أبو الطيب المتنبي الذي كثيراً ما تأمل في شؤون الحياة والموت، بصورة تقوم أكثر ما تقوم على هدي الفطرة لا الانسياق خلف الأوهام (٤٠)، أقر هو الأخر بالموت ورأى فيه ما رآه سابقوه، وبما أنه من الأمور التي اتفق الخلق عليها، لكن الاختلاف كان على أشده، حين تفكر الناس فيه: (٤١) .

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ألا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيلَ تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

إن نظرة أبي الطيب تقتضي الشجاعة، وتؤمن بالقوةِ، إذ ليس هناك من معنى للخوف، لأن الموت هو النهاية الحتمية، وما دام الموت شيئاً لا بد منه، فحري بالإنسان أن يموت شجاعاً، كون الخلود يقتضي التضحية الحقيقية: (٤٢)

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا اضلنا الشجعانا
وإذ لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

أما ابو العلاء الذي أنفق نصف قرن من حياته، متفكراً في الموت، فقد وجد أن الحياة هي السجن الكبير والموت هو المحرر الذي يطهر النفس، إن ابا العلاء " يتحسر لكونه إنساناً يعيش سيحين موته الذي يتقطر إليه نقطة نقطة، فهو ميت قبل أن يغير وليست الحياة إلا موتا يسعى: الثوب الذي يلبسه الإنسان هو الكفن، والمنزل قبره، وعيشه موته، والموت بعثه، وهو حياته الأصلية"(٤٣)، فإذا بأيام الدهر المتعاقبة تأكل الناس، وكأنها أسود، وهي سائرة سيراً حثيثاً: (٤٤).

وتأكلنا أيامنا فكأنما تمر بنا الساعات وهي أسود

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

تسير بنا الأيام وهي حثيثة ونحن قيام فوقها وقعود

فما من وسيلة تحقق للإنسان ما يتوق إليه من الخلود، فإذا بالإنسان لا يملك أمام حيرته تلك من شيء، وإذا بأبي العلاء يستخبر جهينة عن مصير من ماتوا، لعلمه أنها تأتيه باليقين ولكن:.(٤٥)

طلبت يقيناً من جهينةَ عنهم

ولم تخبريني ياجهين سوى ظنِ

وعلى هذا النحو يتولى زمن أبي العلاء، ليأتي زمن أخر يكون فيه النظر إلى الموت رؤية لا تستمد أبعادها من نفس الحياة التي يعيشها الشعراء، إذ تتحرك أخيلة الشعراء ضمن أطر احتازها الماضي، وأفكار تعيد نفسها، فهذا صفي الدين الحلي يرى الموت بعيني غيره ويرى أن المنايا مدركة الفتى، وأن طلب المزيد من الحياة، كطلب الماء من السراب : (٤٦).

لدوا للموت وابنو للخراب فما فوق التراب إلى التراب

فمرجع كل حي للمنايا وغاية كل ملك للذهاب

ومن يَغتر في الدنيا بعيش فقد طلب الشراب من السراب

فهذا الضرب من الرؤية القائم على الأيمان الحتمي بالموت، وأن كل ابن أنثى صائر إليه، لا فرق بين سوقي وملك، ظل قائما في تلك الفترة التي أطلق عليها الدكتور جلال الخياط " الأزمنة الضائعة " (٤٧)، حتى أننا نجد أن أفكار الأقدمين ومعانيهم هي الزاد الذي يتزود منه الشعراء " ويغرق الشعر في الصيغ البلاغية تعويضاً عن الأفكار الضائعة والأخيلة المريضة، والزمنية الخائبة،..." (٤٨).

ف" الموت لا يأتي الناس غيلة ولا يأخذهم على حين غرة، بل هو يسوق إليهم كل يوم نذيراً يذكرهم به وواعظاً يؤكد مجيئه، ففي الجنائز التي تحمل كل يوم إلى التراب قريباً منا أو بعيداً، صغيراً و كبيراً، يطويه عنا الموت مرغمين لا نملك أن نرد عنه شيئاً، لشاهد لا يكذب على أن الموت آت لا محالة على كل أحدٍ " (٤٩).

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

ويدرك العالم تطور مادي هائل، تضطرب الأفكار على حدوده، وتتولد لدى الشاعر هواجس كثيرة، ويحار في تحديد رؤية معينة، إذ أن الغد الذي سيأتي، يحمل في طياته كل جديد فالعالم أصبح متجدداً، ولا يلبث المألوف فيه أن يتغير فكان الشاعر الذي ترسخت في نفسه تلك الرؤية المبنية على أساس عقائدي أن يرى أن صورة الموت باقية كما هي، إذ يدرك الكبير والصغير، فهذا الجوهري قد أكثر من التأمل في الحياة والموت، وحنَّ إلى شبابه وترقب الموت:٥٠

كنا نقول إذا ما فاتنا سحرُ لا بد من سحر ثانٍ يواتينا
لابد من مطلع للشمس يفرحنا ومن اصيل على مهلٍ يحينا
واليوم نرقب في اسحارنا أجلاً تقوم من بعده عجلى نواعينا

ويقول في قصيدة أخرى : (٥١) .

فبم التحايل بالخلود وملهم لحفيرةٍ ومفكر لتراب
من منكم رغم الحياة وعبئها لم يحتسب للموت ألف حساب
ذئب ترصدني وفوق نيوبهِ دم أخوتي وأقاربي وصحابي

لقد أدرك الموت المحبين وطواهم في حفرٍ صارت إليها آجالهم، فلا أسف على ما جنت الأيادي ولا على ما مضى من الزمان، ولا بالخوف من الموت، يتأنى لموت فالأزمة قائمة ولا سبيل لدفعها .

وتمر رحلة الحياة ويغدو التفكر بالموت يأخذ حيزا أكبر ذي قبل حيث الاكتشافات المذهلة، واختراع القنبلة الذرية وما شاب العالم من ظلم وفساد، مما خلق أجواء مشحونة إذا لم نقل بالموت فبالتفكر فيه، فاحتضنت الرومانسية هذا الاتجاه، وأخذت تلك النغمة الحزينة "تتضاعف وتترد طوال مرحلة تطور العالم الرأسمالي، وذالك نتيجة الغربة المتزايدة التي يشعر بها الإنسان في الحياة، وما صحب هذا الشعور من شوق متصل للعودة إلى الدفء والأمان إلى حالة تشبه في الخيال رحم الأم، وكذلك شوق إلى راحة الموت[...]، فهي تنظر إلى الموت كما لو كان هو الوحدة المرجوة أو هو الكلية الشاملة "٥٢، لذلك كان سعي الجيل الأول من الرومانسين،

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

فالشاعر عبد الرحمن شكري الذي يرى أن الموت هو الانتصار الذي يجنب الإنسان بعد كد طويل في الحياة (٥٣).

لا يلذ الموت ألا متعب سهر العيش وفي الموت رقد
رقدةً يا طيبها من رقدةٍ بعد أن عانى وأبلى وسهدِ

لذلك نراه يتوق إلى الموت، " تأثراً بالشعراء الرومانتيكين الذين احبوا الموت وتاملوه، وطربوا لمشاهدة القبور " (٥٤)، ويرى أن أمنه لا يكون ألا في موته (٥٥) .

وما الموت الا الأمن والخلد صنوه ألا أن فقدان الحياة حبور
خليق بنا أن نغبط الميت حاله فان حياة العالمين غرور

وتراوده الشكوك في حياة ما بعد الموت، وكأنه يؤمن بالعدمية، لذلك يبدو موقفه من الموت فيه ما فيه من الحيرة(٥٦).

غدا يستندل الموت منا ومنكم وكل نفيس في الممات يهون
فنصبح موتى لا نحس افتقادكم وأي دفين يستبيه دفين
ويسعى على قبري وقبرك بعدنا من الناس خب ماكر وخؤون
وتمضي الليالي والشهور وتنقضي قرون على أعقابها وقرون
كأن الفتى لم يحي يوماً لحاجة إذا ما دهته بالعفاءِ منون

ويبدو أن عبد الرحمن شكري كان شأنه شأن الرومانسيين الذين يطربون لمشاهدة القبور " وشعر القبور والليل تقليد سرى على جميع أوربا من الأدب الإنجليزي منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر وكان الإنجليز شعراء " مدرسة القبور " وذلك أن القبر وما حواه من الأهل والأحباب كان موضوعاً محبباً لجماعة من قسس الإنجليز فلاسفة وشعراء، وكانوا ينظمون خواطرهم أمام تلك القبور ليلاً فكان الليل موحياً لهم بخواطر تدور حول الموت والخلود،

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

وكان الرائد في هذا الباب الشاعر والفيلسوف الإنجليزي Young في لياليه وخواطره في الحياة والموت والخلود " (٥٧) .

وأرسل ابو القاسم الشابي هتافاته المتحشرجة وهو ينازع الموت، إذ كانت تجربته معه عميقة:(٥٨).

جف سحر الحياة يا قلبي البا كي فيها تجرب الموت هبا

وترى نازك أن موقف ابي القاسم الشابي في قصيدة " النبي المجهول " : (٥٩) .

ثم، تحت الصنوبر الناظر الحلو، تخط السيول حفرة رمسي
وتظل الطيور تلغو على قبري ويشدو النسيم فوقي بهمس
وتظل الفصول تمشي حوالي كما كنَّ في غضارةِ أمسِ

((" يعيد إلى الذاكرة موقف الشاعر الإنجليزي جون كتيس (John Keats) الذي يمكن أن نسميه شاعر الموت المفتون الأكبر، فهو يقول في إحدى قصائده: " الشعر والمجد والجمال أشياء عميقة حقاً. ولكن الموت اعمق. الموت مكافأة الحياة الكبرى "...))(٦٠) إذ يصف أبو القاسم الشابي الموت بالحياة دون أن يصرح بذلك علناً .

أما المهجريون، فإنهم يرون أن الموت هو المحطة الأخيرة التي يلقي عندها الإنسان أثقاله ليستريح بعد عناء الحياة، ويرى ميخائيل نعيمة، أن الحياة يمكن أن يجدها الإنسان في قبره:(٦١)

وعندما الموت يدنو واللحد يغفر فاه
اغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياة

ويقول جبران خليل جبران (٦٢):

والموت في الأرض لابن الأرض خاتمه وللأثيري فهو البدء والظفر
فالموت كالبحر، من خفت عناصره يجتازه وأخو الأثقال ينحدر

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

فهو يرى أن ثمت موتين، أحدهما يؤدي بالإنسان إلى العدم والانحلال، وأخر يفضي به إلى الظفر بحياة أخرى.

أما إيليا أبو ماضي في " طلاسمه " فيرى أن الحياة التي أتت به، وستنتهي به إلى حيث لا يعلم، جعلت من موقفه إزاء كل شيء متشككاً، لذلك فهو لا يتوانى أن يقول " لست أدري "٦٣.

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري

الهوامش

(١) سورة الملك، رقم الآيات/١ – ٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ٢٦/٥ .

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: إتحاد الكتاب العرب، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ٢٢٧/٥.

(٤) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصر، ، طبعة دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، مادة موت ٩٠/٢ – ٩٤.

(٥) سورة الروم، رقم الآية/١٩.

(٦) سورة مريم، رقم الآية/٢٣ .

(٧) سورة الأنعام، رقم الآية/١٢٢ .

(٨) سورة النمل، رقم الآية/٨٠ .

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

(٩) سورة إبراهيم، رقم الآية/١٧ .

(١٠) سورة الزمر، رقم الآية/٤٢ .

(١١) لسان العرب، ٩٣/٢، مادة موت. .

(١٢) صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، رقم الحديث ٦٢٥٦.

(١٣) سورة الطور، رقم الآية/٣٠ .

(١٤) لسان العرب ٤٨٤/١٢، مادة قشعم .

(١٥) لسان العرب ٥٤٧/١٢، مادة لهم.

(١٦) يقال في المثل: (طرقته أمُّ الدُّهيم). المستقصى في أمثال العرب لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م،١٥١/٢.

(١٧) كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني، ضبط وتصحيح الأب لويس شيخو، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٨٨٥م، ص ٢٥٣.

(١٨) الموت في الفكر الغربي، جاك شورون، ترجمة : كامل يوسف حسين، مطبعة الرسالة، الكويت، ١٩٨٤: ١٨ .

(١٩) نفس المرجع : ١٩ .

(٢٠) نفس المرجع : ٢٠ .

(٢١) ملحمة جلجامش، ترجمة : طه باقر، وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ط١، ١٩٧٧ : ١١٠ .

(٢٢) نفس المرجع :٢١ .

(٢٣) نفس المرجع : ١١٧ – ١٢٠ .

(٢٤) الموت في الفكر الغربي، جاك شورون، ٢٣ .

(٢٥) مصر والشرق الأدنى القديم، د نجيب ميخائيل إبراهيم، مؤسسة المطبوعات الحديثة، مصر، ط، ١٩٥٩: ٤/ ١٩٠-١٩١ .

(٢٦) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر ، بغداد ، ط١، ١٩٧٣: ٢/ ٣٢ .

(٢٧) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٦١: ج ٢ ص ٢٢١ .

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

(٢٨) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، د حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨: ٢٩ .

(٢٩) الوحشيات، أبو تمام (حبيب بن اوس الطائي)، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٣: ١٦٢ .

(٣٠) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي،د حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨: ٢٩ .

(٣١) ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق، د احسان عباس ، الكويت ، ط، ١٩٦٢ : ٢٥٤ .

(٣٢) شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ١٩٦٣: ٣٧٤ .

(٣٣) ديوان امرىء القيس، رواية الأصمعي والمفضل وغيرهما، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، القاهرة، ط ١٩٦٤ : ٩٧ .

(٣٤) ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق: عبد الجبار المعيبد، بغداد، ط ١٩٦٥ : ٦٤ .

(٣٥) الزمان والمكان في شعر العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢)،أطروحة دكتوراه، غني صكبان، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠١: ١٢٤ .

(٣٦) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، تحقيق: د شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ط ١٩٦٥م: ١١١.

(٣٧) نفس المرجع : ١٨ .

(٣٨) ديوان بشار بن برد، شرح: محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،ط ١٩٥٤: ١٦٢ .

(٣٩) ديوان ديك الجن الحمصي، حققه وأعد تكملته: د أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، دار الثقافة ، لبنان، ط ١٩٨٧: ١١٨-١١٩ .

(٤٠) فن المتنبي بعد ألف عام، إبراهيم العريض، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٢: ٢٣٥ .

(٤١) ديوان المتنبي، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة محمد مصطفى، مصر، ط ١٩٣٠: ٦٩/١.

(٤٢) ديوان المتنبي : فهرسه وشرحه : عبود احمد الخزرجي ، منشورات المكتبة العالمية ، بغداد ، ط ١٩٨٨: ٣٥٧ .

(٤٣) مقدمة للشعر العربي، علي أحمد سعيد (أدونيس)، دار العودة ، بيروت ، ط١، ١٩٧١م: ٦٢.

(٤٤) اللزوميات، أبو العلاء المعري، مطبعة دار صادر، بيروت،ط ١٩٦٩ : ٣١٣/١ .

© rasailojaraid.com

© rasailojaraid.com

(٤٥) شروح سقط الزند، تحقيق: مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود، وغيرهم، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١٩٤٦: ٢/٩٢٥.

(٤٦) ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، ط ١٩٦٢: ٣٨٦ .

(٤٧) الشعر والزمن، جلال الخياط، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ط ١٩٧٠ : ٥٧ .

(٤٨) نفس المرجع ٥٧ .

(٤٩) الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، عدنان حسين العوادي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط ١٩٧٩ : ١٣٨ .

(٥٠) ديوان الجواهري ، بغداد ، ط٥ ، ١٩٦١ : ١/٢٢ .

(٥١) نفس المرجع : ١/٤٨ .

(٥٢) الاشتراكية والفن، أرنست فيشر، ترجمة: أسعد حليم ، منشورات مكتبة ٣٠ تموز ، الموصل، ط ١٩٨٤م : ٩٥ .

(٥٣) جماعة الديوان: شكري– المازني– العقاد، د يسري سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د٠ط، ١٩٧٧: ٧٩ .

(٥٤) نفس المرجع : ١٢٠ .

(٥٥) نفس المرجع : ١٢٠ .

(٥٦) نفس المرجع : ١٢٢ .

(٥٧) الرومانتيكية، محمد غنمي هلال، بيروت، ط ١٩٧٣: ٢٩ .

(٥٨) أغاني الحياة. ديوان شعر أبي القاسم الشابي، دار مصر للطباعة، الفجالة ، ط١، ١٩٥٥: ١٤٣.

(٥٩) نفس المرجع: ١٠٣ .

(٦٠) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ، ط٢، ١٩٦٥، ٢٧٢.

(٦١) الشعر العربي في المهجر، محمد عبد الغني حسن، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٦٢:١٧ .

(٦٢) نفس المرجع: ٢٢٠.

(٦٣) شعراء الرابطة القلمية، نادرة سعيد سراج ، القاهرة ، ط ١٩٥٥: ١٧٥–١٧٦.

☆☆☆☆☆☆☆☆☆

© rasailojaraid.com